

المنظور النفسي والاجتماعي للعنف السياسي والديني

قراءة على هامش أحداث مظاهرات الإسكندرية

د. علي إسماعيل عبد الرحمن - مدرس الطب النفسي والأعصاب بطب الأزهر

alysmail4@gmail.com - alysmail@maktoob.com

مقدمة :

العنف هو سلوك قصدي يستهدف إلحاق الضرر بالشخص أو الممتلكات، ويعتبر العنف السياسي هو أشهر أنواع العنف، وهو عنف يوجه نحو جماعة معينة (طائفة)، ولا يقتصر على رموز الجماعة أو الممثلين الرسميين لها، بل يستهدف أيضاً جمهور الجماعة أيضاً.

والعنف السياسي يتم بالعلانية لأنه في نظر من يقوم به أنه شرف كبير يستحق التباهي، كما يتوقف الحكم على مرتكبه سلباً أو إيجاباً (إرهاب ، استشهاد) على خلفية الشخص الثقافية والاجتماعية مما يجعل الحكم على نفس السلوك بحكمين متضادين.

العنف السياسي لا تحركه المصالح المادية المباشرة، بل تحركه محاولة تحسين أوضاع الجماعة المنتمي إليها الفرد أو الصالح العام للمجتمع ككل.

العنف السياسي لا تحركه الدوافع الفردية نحو شخص ما (الثأر) بل نحو أفكار هذا الشخص وما يمثله كرمز لجماعة معينة.

ويعتبر العنف السياسي الديني (الموجه من طائفة دينية إلى أخرى) هو الأعلى ضجيجاً في عالم اليوم ، وما حدث في الإسكندرية هو صورة من صور العنف السياسي الموجه من جماعة دينية إلى أخرى ، وهو صراع طائفي من المستوي الثاني الذي يتميز بتنوع أطرافه واتساع مجاله عن الصراع الفردي (المستوي الأول) وإن كان أقل تعقيداً من الصراع الدولي (المستوي الثالث).

وقد سبب هذا الصراع الكامن حدوث أزمة (تحول مفاجئ عن السلوك المعتاد ، مما ترتب عليه نشوء تهديد مباشر لقيم أو المصالح الجوهرية لأحد أطراف النزاع) قام بها مجموعة من الأفراد العاديين الذين لم يكونوا ضمن تنظيم سياسي أو ديني ، حيث اندفعوا للمشاركة في الأزمة إثر شرارة سلوكية صغيرة ، وهي تسرب معلومة منقوصة وهو ما يطلق عليه (الإشاعة) .

ولكي تتكون الإشاعة لابد من توافر جزأين أساسيين ، أولهما أن يكون محتواها ديني أو جنسي ، وثانيهما أن يكون جزء كبير من المحتوى غامض أو مجهول حتى يتيح للأفراد المشاركين في نقلها إلى إضافة جزء كبير من معتقداتهم أو خيالاتهم .

تحليل الأزمة

ويري المسيحيون أن المسلمين يودون القضاء عليهم ويظهر ذلك في طريقة تعامل المسيحيين داخل المجتمع لمصري حيث يتعاملون علي أنهم جماعة اثنية (لهم طقوس وعادات مميزة) وأنهم مختلفون عن محيطهم الوطني من ناحية ومتحدين كجماعة من ناحية أخرى (ظهور الانطواء علي الذات وتعميق النزعة الطائفية لديهم).

هو صراع علي المستوي المجتمعي (طائفي)، ديني من حيث الموضوع، علمي من حيث درجة الظهور، متعدد الأطراف، عنيف الدرجة، وهو صراع معلوماتي، قيمي، علاقتي من حيث السبب.

معلوماتي [ناتجة عن نقص المعلومات، افتقاد المعلومات الصحيحة، استخدام أسلوب التعمية (خروج البابا وشيخ الأزهر لتأكيد الوحدة الوطنية)].

علاقتي (لأنه قائم علي عدا كامن بين الطرفين وافتراسات سلبية من كليهما تجاه الآخر).

قيمي (لأنه مرتبط بالعقيدة الدينية مما جعله يتأجج.

ما الذي أدى إلي استمرار الأزمة لفترة ؟

1- سوء العلاقات بين الطرفين (الافتراضات السلبية)

فالمسلمون يفترضون أن المسيحيين عملاء ومأجورين وأكد علي ذلك استخدام أمريكا لورقة المسيحيين عند أي أزمة مع الحكومة المصرية مما أعاد إلي الأذهان استخدام أوروبا للمارونيين أثناء العهد العثماني.

2- العدا الكامن بين الطرفين والرغبة في الثأر

فالمسلمون يرون أن المسيحيين انتصروا عليهم في مشكلتي وفاء قسطنطين وماري عبد الله ، ولا بد من الثأر للدين طالما أن الدولة لم تفعل ذلك، والمسيحيون يرون أن المسلمين يقومون باستقطاب الشباب المسيحي نحو الإسلام فأرادوا الثأر من ذلك بالطعن في الدين الإسلامي (المسرحية).

3- الإصرار علي الرأي وعدم التراجع عنه

وذلك للأسباب الآتية:

(أ) كلا الطرفين يري أن الآخر هو البادي بالعدوان وأن التراجع ضعف وتخاذل.

وهو ما يجد صدي لذي الذكور ، ولا يمثل تهديدا للأسرة ومصدر الرزق بصورة مباشرة وهي القضايا الأكثر اهتماما لدي الإناث ، كما أن الذكور مسموح لهم بحرية أكبر في التعبير عن آرائهم .

4- استخدام الدولة لحيلة الإنكار

(النائب العام صرح بأنه لا توجد مسرحية) مما أثار حفيظة كلا الطرفين، وأدى غلي التشكيك الدائم في نوايا الدولة، وأكد ما يعتبر من سمات الطابع القومي المصري.

5- استخدام الدولة لحيلتي الإنكار والتعمية

(تأكيد شيخ الأزهر والبابا علي عدم وجود فتنة) أدى إلي اتهام الدولة بالجبن وعدم قدرتها علي مواجهة الأزمات.

6- حماية الأفراد بعضهم لبعض

(سيكولوجية التظاهر): حيث تتغير الصفات الشخصية لدي الأفراد فتحل الشجاعة محل الخوف، مما يجعل توقع مسار المظاهرة محل شك.

7- تراجع دور القيادات السياسية المدنية

في صفوف كلا الطرفين ، وانتقال مركز النقل إلي القيادات الدينية (القساوسة أصحاب المسرحية ، الإخوان هم من أنهوا الاعتصام) ، مما يركي روح الطائفية ويؤكد عدم الثقة بالسلطة.

ومن كل ما سبق نجد أن الدولة كانت هي المستهدفة من الطرفين: فالمسلمون يرون أنها تحمي الأقباط، والأقباط يريدون قياس مدى التزام السلطة بحمايتهم.

فهي نظرية الابن المدلل، الابن المنبوذ، فالابن المدلل هو الذي يقبس إلي أي مدي يسمح له الأب بالخطأ، والابن المنبوذ هو الذي يستفز الأب ليظهر عجزه عن المواجهة.

الخلاصة

الأفكار وحدها مهما بلغت من تشوهات انفعالية وفكرية لا تؤدي إلي ظهور أو ممارسة العنف ، فلكي تتحول الفكرة إلي سلوك تحتاج إلي توافر العديد من الخصائص والسمات النفسية والاجتماعية والموقفية ، فكراهية الآخر قد تؤدي إلي العنف ، كما قد تؤدي إلي السلبية (الانسحاب ، أو المقاطعة).

وللقضاء علي العنف يجب الاهتمام بالآتي :

1- الفئات المهمشة (الأكثر قابلية لاستثارة العنف) خاصة الشباب ، الفقراء ، العاطلون، وذلك للتعرف علي مثيرات العنف لديهم ومحاولة خفض هذه المثيرات.

2- الحوار الصحي الايجابي لإعطاء كل الفئات الحق في التعبير وقبول الأفكار مهما كانت درجة الاختلاف معها أو النفور منها، مما يقلل من حدوث العنف.

3- التدريب علي المهارات الاجتماعية، ومهارات التواصل، ومهارات الحوار.

4- العقاب الفوري للمخطأ، مما يقلل حدة وتكرار السلوكيات العنيفة.

5- مسئولية السلطة السياسية: الإصلاح السياسي بلا خوف أو تردد، مقاومة التزوير، إلغاء القوانين المقيدة للحريات.

(ب) كلا الطرفين يري أن الآخر هو الخارج عن الأصول الصحيحة بينما هو الملتزم بها.

(ج) كلا الطرفين يري أن الآخر لن يتغير مهما حاول إيهامنا بالتغيير .

(د) كلا الطرفين يري أن الآخر سواء كان مفكرا أو منفذا أو معارضا لفكر جماعته هو عدو ، وأن ما يحدث من تنوع في المواقف هو من قبيل الخداع.

4-العيب علي مشاعر الجماهير (التحفيز)

المسلمون يقولون (المسيحيون لا يمثلون سوي الأقلية)، ويرد المسيحيون (نحن أصحاب البلد و المسلمون سرقوا مصر من القبط)

يجب أن ننقي من صفوفنا المتخاذلون الذين يدعون إلي الحوار معهم، فهم إما سذج مضللون أو عملاء مندسوس، أو ضعاف ترعبهم المواجهة.

5- الإحباط الشديد لدي الطرفين

وهو نوعين إحباط عام، وآخر خاص.

الإحباط العام لدي الطرفين يتمثل في فقدان الأمل في المستقبل علي كل المستويات (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية).

و يمثل الإحباط الخاص لدي المسيحيين في إحساسهم بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، وأنه لا فائدة ترجي من الحكومة خاصة بعد ظهور ترشحات الحزب الوطني لمجلس الشعب ووجود فقط اثنان من الأقباط ، مما جعلهم يشعرون بالخديعة فقاموا بمحاولة إجراج السلطة وإظهارها بصورة غير القادرة علي حماية مواطنيها خاصة مع قرب انعقاد مؤتمر أقباط المهجر .

و يمثل الإحباط الخاص لدي المسلمون في رؤيتهم الانصياع الكامل للغرب في تنفيذ كل الأوامر ، وخوف الحكومة الدائم والشديد من استخدام ورقة الأقباط مما يجعلهم يخالفوا القانون والدستور من أجل إرضاء الغرب (مشكلة وفاء قسطنطين).

6- غياب العقاب

كلا الطرفين يعلم أن الدولة تهتم بالتحكم في رد الفعل أكثر من اهتمامها بالفعل نفسه مما يجعلها تنجأ إلي المساومة كحل وحيد للتخلص من الأزمة بشرط عدم خسارة الطرفين .

التحليل الكيفي للأزمة

1- الطلاب الشباب

هم من حركوا المظاهرة وهو ما يشير إلي أن العنف سمة شبابية ، وأنه يخرج دائما من المتعلمين فهم الذين بدئوا في نشر الأسطوانة التي تحتوي علي المسرحية ، كما أن الشباب هم الأكثر انشغالا بقضايا الوطن ، وسماتهم النفسية تجعلهم أكثر انفعالا ، وأقل قدرة علي ضبط النفس والتحكم في الغضب ، وساعد علي ذلك رؤيتهم المحبطة للمستقبل (هم الأكثر تأثرا بالمستقبل).

2- الأشخاص ذوي المستويات الاجتماعية والاقتصادية المتوسطة والدنيا (العمال، الحرفيين، الطلاب):

هم الأكثر تواجدا في المظاهرة، وهو ما يشير إلي عمومية الشعور بالإحباط والرغبة في التغيير.

3- الذكور :

كانوا أضعاف المشاركات من الإناث ، وذلك لأنها قضية تمس الفكر

- 4- مسؤولية السلطة الأمنية: الالتزام بالمعاهدات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، التعامل بحياد تام مع كل المواطنين، محاسبة المتجاوزين من رجال الشرطة.
- 5- مسؤولية المدارس: استعادة الدور التربوي، تنمية مهارات التواصل بين الطلاب، وفتح أبواب المناقشة بينهم وتمييزها.
- 1- مسؤولية الإعلام: إشاعة قيم التسامح والصدق والعدل والرحمة وغيرها من الأخلاقيات.
- 2- مسؤولية المؤسسات الدينية: إشاعة قيم المحبة وقبول الآخر المختلف، محاربة الفكر الديني الاستقطابي.
- 3- مسؤولية الأسرة: الحوار والتسامح والفكر الديني السليم.

الله أكبر ... الله أكبر... الله أكبر.... وإنا لله وإنا إليه راجعون

"كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"

همزة من الحزن والأسى بلغنا نعي علما من أعلام الفكر المغربي / العربي:

أ.د. محمد حامد الجابري

أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي في الجامعة المغربية ما بين 1967 و 2002 .
صاحب مجلة " نقد و فكر "

بفقد، فقد الفكر العربي أحد أبرز أعمدة مسيرته لهضنه...

بفقد، فقد علما فلذا ترك بصمة لا تمحى في مسيرة تأصيل الفكر العربي.

ساهم الجابري في إغناء المكتبة المغربية و العربية، من خلال مؤلفات عدة منها: «العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ العربي الإسلامي»، 1971، «نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي»، 1980 و «المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي» (1982)، و«إشكاليات الفكر العربي المعاصر» (1986)، وكتابه في «نقد العقل العربي»، الذي صدر في ثلاثة أجزاء: «تكوين العقل العربي» (1982)، «بنية العقل العربي» (1986) و«العقل السياسي العربي» (1990)، وقد اعتبر النقاد هذه الثلاثية أهم ما كتب في موضوع العقل العربي، «التراث والحداثة» (1991)، و«الخطاب العربي المعاصر» (1994)، و«وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر» (1992)، و«المسألة الثقافية» (1994) و«الديمقراطية وحقوق الإنسان» (1994)، و«مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب» (1995)، «الدين والدولة وتطبيق الشريعة» (1996)، و«المشروع النهضوي العربي: مراجعة نقدية» (1996)، «العقل الأخلاقي العربي» (2001)، «مدخل إلى القرآن الكريم» (2008)، المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد (2008)، «الحوار... والمثقف» (2008). ترجم عدد من مؤلفاته إلى اللغات الإيطالية، الإنكليزية، البرتغالية والإسبانية.

في هذا الظرف الأليم، لا يسعني إلا أن أقدم باسمي و باسم كافة أعضاء الهيئة العلمية الإستشارية لـ"شبكة العلوم النفسية العربية" إلى زوجه وأبناءه وآل الجابري بخالص التعازي، رافعين أكف الدعاء بفاحة الكتاب ترحمنا على روحه الطاهرة، سائلين العليّ القدير أن يسبغ عليهم فيض رحمته و يرزقهم جميل الصبر والسلوان في مصابهم الجلل، كما نتقدم بالتعازي إلى كافة الزملاء المغاربة والمفكرين العرب وأخصائي العلوم النفسية في الوطن العربي.

العين تدمع والقلب يخشع... ولا مراد لقضاء الحق تعالى... نسألك اللهم أن تنغمد فقيدنا برحمتك الواسعة وتسكنه فرايس جناتك وتحش

زمنة عبادك الصالحين، يا أرحم الراحمين... وإنا لله وإنا إليه راجعون

"يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فإدخلي في عبادي وإدخلي جنتي"

د. جمال التركي

رئيس شبكة العلوم النفسية العربية